ما هي المسألة ؟

مشكلة التخلّف والتقدّم

بقلم مطاع صفدي

حاول العديد من المثقفين العرب من زوايا مختلفة ، ومن خلفيات سياسية متناقضة ، ان يربطوا بين الهزيمة وبين المجتمع المتخلف ، وان يعتبروا ان الانكسار في الحرب نتيجة طبيعية لنوع القوى ، ونوع العقلية ، السائدين في المجتمع العربي المتأخر . ولقد طرح بعض هؤلاء صيغة تحديثية لوصف المشكلة ، فقالوا ان العجز التكنولوجي قد ساهم مساهمة اولية ومباشرة في دحر الجيوش العربية . واعتبر هؤلاء ان المعركة مع اسرائيل هي معركة الحضارة مع التخلف . وكما ان التخلف لا يمكن ان ينتصر على الحضارة ، كذلك فان التخلف العربي سيظل اهم العوامل السلبية في تقدير كل مواجهة جديدة مع اسرائيل .

وكان من بين هؤلاء المثقفين من حاول ان يثير هذه المسالة من زاوية عقلية ، فربط بين المؤثرات الغيبية ، وبين تخلف الفكر العربي بصورة عامة ، وصولا من هذا الربط الى الحكم على ان العرب يعيشون في عقلية القرون الوسطى ، اي في عهد ما قبل الثورات الدينية والثقافية والعلمية بمراحلها المختلفة .

وهناك من حاول ان يدعو الى الخلاص من العقلية الغيبية ، والخلاص من حالة التخلف في التكنولوجيا ، واصلاح المجتمع العربي ، واتفق الجميع على ضرورة هذا الخلاص وهذا الاصلاح . وسعى كل مثقف منهم ان يثبت دعوته هذه ، من خلال بعض الامثلة الحسية عن مدى تغلغل العقلية الغيبية ، ومدى العجز التكنولوجي . وتقبل القراء وجماهير المحاضرين والندوات هذه الدعوات كحقائق مسلم بها. وجعلوا منها تبريرا شموليا لا يقف عند حد تعليل الهزيمة الاخيرة ، ولكنه يريد ان يؤكد استمرار شرط الهزيمة عامة ، باستمرار وضع التخلف.

ولا شك ان بوسع بعض العقول الاخرى ، التي تصمد قليلا امام قوة السريان الجماعي للافكار بسلطة الاشاعات ذاتها ، ان تعتبر مثل هذه الطائفة من الدعوات في مرحلة الاعداد لحرب جديدة ، اشبه بفلسفة لليأس ، ونظرية للاستسلام . اذ ان نقل مجتمع من حال التخلف الى حال (الحضارة) ، التي يتغنى بها هؤلاء السادة ، كمدخل ضروري نحو الانتصار على اسرائيل ، هو بمثابة تأجيل لهذا الانتصار الى ما لا يحد من الزمن ومن التطور . فكأن هناك من يقول : على العرب ان ينتظروا حتى يصبحوا كالمجتمعات الغربية رقيا وتقدما ، ثم يبادروا الى معركة تصفية نهائية مع اسرائيل . ولكي لا يظلم جميع هؤلاء السادة العلماء بمثل هذا الحكم ، اي كونهم دعاة تيئيس وتأجيل للصراع المحتوم ، فمن الواجب ان نذكر ان الكثرة منهم يتمتعون بوجدان بريء ، وان بعضهم على الاقل يعي ان مسالة التخلف ليست حاجزا ابديا في وجه الشعوب المتطلعة الى حريتها وكرامتها .

وما نريد ان نبحثه في هذا الموضوع ، ليس مناقشة هذا الرأي كما (قيل) في بعض محاضرات عاجلة ، او مقالات انشائية او من خلال اراء نشرت في قاعات بعض الجامعات والنوادي الاجتماعية . ولكن هدف هذا البحث هو اثارة موضوع التخلف والتقدم بالنسبة للمجتمع العربي ، وماذا تعنيه هذه الوضعية بالذات ، ومدى ما تثيره من علاقات جدلية بين حدودها وما تجسده من انماط واقعية في التفكير والسلوك . ذلك مدخل ضروري لا بد منه من اجل الا نستخدم الالفاظ بالآلية الصماء نفسها التي نستخدم فيها الشعارات في مجالات السياسة . واذا كان ثمة ما يؤخذ على اصحاب بعض الاقلام التي شرعت راياتها في مرحلة ما بعد الهزيمة ، وغرفت ما شاءت من حبر التخلف ، فان ما يؤخذ عليها مبدئيا انها تناولت هذه اللفظة بآلية الشعار السياسي . اي انها نحتته ورمته في السوق ، وكأنه صناعة نهائية معروفة اصولها ، واضحة لدى القاصي والداني .

والدليل على غموض المضمون الذي حملته هذه اللفظة ، هو اختلاف المقاصد والمعاني من اثارة الدعوة الى القضاء على التخلف . وعلى سبيل المثال ، لا الحصر ، يمكن ان نشير فيما يلي الى بعض الاتجاهات الاساسية التي تبنتها هذه الدعوات بدرجات مختلفة من الوعي والقصد .

اولا ينبغي ان نشير الى ان الجميع قد استخدموا تعبير(التخلف) دون ان يحددوا فيه انظمة سياسية تقدمية او رجعية ، او عقائد دينية، او انماطا سلوكية معينة ، او منظومات من التقاليد والاعراف والقيم ، او اوضاعا اقتصادية مباشرة . ولذلك جاءت كلمة التخلف لتلف تحت عباءتها السوداء جميع هذه المستويات ، لتشملها ولا تشمل واحدا منها بالذات . وهكذا استفاد الجميع من عدم التحديد ، ليتحاشوا ما امكن البحث الاستقصائي المباشر ، وتحمل المسؤولية الواقعية . كما انهم افادوا من الشمول والتعميم للجمع بين مختلف مظاهر المجتمع العربي تحت حكم واحد ، لكي يساووا في القيمة بين كل من المظاهر التقدمية الخيرة ، والمظاهر المتأخرة السيئة . وهكذا لم يميز في تعبير التخلف بين أن يكون التخلف وصفا لواقع ، وبين ان يكون حكما منطقيا واخلاقيا وحضاريا عليه .

فحين يقول الطبيب عن شخص انه مريض ، فهو يصف وصفا واقعيا ،يتطلب منه موقفا علميا يقوم على معرفة سبب المرض واسلوب معالجته . اما عندما يصف احدنا شخصا اخر بالمرض ، فان هذا الوصف يثير تقييما وجوديا له ، يثير لدينا موقفا ذاتيا ، يتضمن اما الشفقة والرثاء لحاله ، واما التخلي والقرف .

ولهذا لم تخل اكثر الكتابات حول موضوع التخلف ، في مرحلة ما بعد الهزيمة ، من هذا الانزلاق من مستوى الوصف العلمي ، الى مستوى الحكم الذاتي ، فلم ينج قلم ، التزم مسالة التخلف ، من الايحاء بالتخلي ، وما يشبه القرف من (مجتمع التخلف) . وكان ثمة تبرئة للذات من الانتماء الى مثل ـ هذا ـ المجتمع ، وبالتالي عدم تحمل مسؤولية ما يجري فيه ، سواء تحت عنوان التقدم والثورة ، او تحت عنوان التأخر والجمود .

ومن ناحية اخرى فان غموض التعبير لا ينفع فقط في التسوية ما بين مختلف مظاهر الموضوع الذي ينطبق عليه ، ولكنه يوحي بطمس معالم التقدم لحساب الحكم على التخلف المطلق . هنا يقوم موقف ثبوتي اخر ، مشتق هو ذاته من بعض فعاليات العقلية التخلفية ، التي لا ترى في الموضوع الا جانبا وحيدا ، يثير عندها حكما وحيدا،تتمسك به ارادة التعصب ، اكثر مما يفرضه وضوح الوعي .

ومن ناحية ثالثة فان خاصية التعميم في تعبير التخلف ، ينبغي الا تخدعنا ، فتوحي لنا بانها ذات صفة شمولية ، قادرة على انارة

جميع عوامل المجتمع واسسه وانماطه . على العكس فانها خاصية افقار، وليست خاصية اغناء . انها تفقر الموضوع الى درجة تتيح للكاتب احيانا ان يتشبث باصغر الجزئيات ، فيبرزها ويحللها ، ويسكب عليها طابع الطرافة والامتاع ، حتى يبعدها عن حجمها الطبيعي ، ويقطعها عن سياقها الموضوعي الاصلي . ثم يجعلها هي المثال ، وهي ما يتمثل به ، هي الموضوع وهي اداة البحث ، بل هي مقياسه الاعلى .

فاللفظة الغامضة الموحية بالشمول المطلق ، ان هي الا وحدة عملة تفقر موضوعها الى حجم بعض الجزئيات الباهرة الظاهرة على سطحه ، لتبرر دراسة الجزئية ، باسلوب الاطراف والامتاع لا اسلوب التحليل والكشف ، ثم لتوسع من الجزئية حتى تتحول الى كلية ، هي الموضوع، وهي اداة البحث ، وهي المقياس النهائي .

***

ان هذا الاسلوب في استخدام تعبير التخلف والتظاهر بدراسته، هو نفسه يرجع الى ادومة العقلية التخلفية ذاتها .

ذلك ان العقلية التخلفية هي التي تقف من موضوعات العالم ، موقفا احتفاليا . والموقف الاحتفالي لا يهتم بمعرفة موضوعه كما هو ، بل بالقدر الذي يثير في الذات الجماعية من شعور بالتهديد او الامان . وهو كذلك لا يهتم بمعرفة عوامل الموضوع وتقديرها التقدير الواقعي بنسبة علاقاتها ببعضها او بأثرها على الكل . ولكنه ينتزع من الموضوع العامل الذي يشكل محور الانفعال الاحتفالي ، بالاقبال المضخم او الادبار المضخم . ثم يقوم هذا العامل المفرد امام الذات الجماعية مقام الكل ، ويصبح زاوية ثابتة لرؤية منبهات العالم الخارجي جميعها. هكذا مثلا اعتبر بعض هؤلاء المثقفين ان خطب الشقيري سببت الحرب، او انها حولت الضمير العالمي ضدنا. وهكذا نظر بعضهم الاخر سياسيا الى ان اغلاق مضائق تيران وانسحاب القوات الدولية اعطت المبرر النهائي للعدوان .

وهكذا اعتبر التدين عقائديا ، لدى الشعوب العربية ، يمثل العقلية الغيبية ، وانه علة التخلف .

وهكذا ايضا اعتبرت بعض القيادات السياسية الثورية مسؤولة عن الهزيمة وحدها .. او نظر الى الحشيش والقات والافيون ، انها هي التخلف وهي علة الهزيمة . وفي مستوى اقل ظهورا وبروزا،حاول بعض الكتاب ان يضخم من امثلة اخرى لها علاقة بمستوى الاخلاق ، وقصة النظام والفوضى ، وضعف .. التكنولوجيا . كل ذلك يتشبث به الموقف الاحتفالي ، ويضخمه ، ويمط من ظله حتى يجعله السبب الاول والاخر ، اي يعطيه مضمون(القدر) التقليدي وان لم يسمه باسمه .

نأتي الان الى دراسة اسلوب اخر من اساليب استخدام تعبير التخلف بآثار ونتائج العقلية التخلفية نفسها ، وهي تحاول الثورة على ذاتها ، بادعاء التنصل الكامل منها والاستعلاء عليها بمجرد تسمية بعض المظاهر تخلفية . انه الاسلوب الذي يدعو الى الخلاص ـ من ـ هذا ، ولا يبين ابدا الطريق والاداة لتحقيق هذا الخلاص .

في الوسط الذي يدعى بالوسط الثقافي او الواعي او الراقي من المجتمع المتخلف ـ وكل هذه التسميات هي طبعا نسبية ـ تسود ظاهرة خاصة من التجريد ، لا يعرفها المجتمع الابتدائي ، كما لا يعرفها المجتمع المتقدم ، وهو التجريد الكياني ، الذي لا يشبه ظاهرة مضاعفة العالم المادي ، بعالم من الارواح ، كما عند الابتدائيين ، ولا يشبه ظاهرة التجريد العقلي ، من رياضي وعلمي للعالم ، وتحويله الى رموز وافكار وعلاقات صورية ومعادلات ، كما لدى المجتمع الغربي .

ان الابتدائي قد يستعيض عن العامل المادي الذي يخيفه ، وحش او بركان او عدو ، برمز سحري مادي اخر يجسده في ارض القبيلة وتحت حراسة تقاليدها ، وينظم اسلوب تعامل مادي مع الرمز،بالسحر وممارسة طقوس التحريم .

وان المتحضر المنتمي الى حضارة الغرب ، يجرد العالم من ماديته المتكثرة ليوحده في مادية الرموز والمعادلات كمرحلة متوسطة ، لينطلق عن طريق هذا التوحيد الى اعادة بناء العالم الخارجي بما يناسب المجتمع العلمي النفعي .

اما انسان المجتمع المتخلف ، والموصوف بالمثقف ، فانه يجرد اشياء العالم وحوادثه من واقعيتها وموضوعيتها ، ولا يستبدلها لا بالسحر ولا بالعلم ، ولكن بما هو مزيج بين الاثنين ، بنوع من الممارسة المتناقضة الغريبة . وفيها عنصر العلم مشوه ، لا يستطيع ان يطرد عنصر السحر ، وان كان يدركه ويحدده . وفيها عنصر السحر كذلك مشوه ، يستكره العلم ويخافه ، ولكنه يعجز عن مواجهته ، فيداوره باصطناع هيئة عدوه ، أي بأن يلبس السحر لبوس العلم .

فهنا كذلك عندما نقول تخلفا ، ونحن ننتمي الى هذا المجتمع الذي يحمل هذا القول فاننا نستخدم اللفظ بهيبة السحر ، ونحن نقصد به العلم بالحال والوضع . اننا نريد ان نوحي الى انفسنا اننا عرفنا (السر) واننا قادرون على استخدامه . والمعرفة هنا ليست بمعنى الكشف عن حقيقة ، ولكنها بمعنى تملك (سلطة) ، تماما على طريقة تملك الساحر الابتدائي للرموز واستخدامها كقوى للتاثير الواقعي . ولكن اللفظة في حد ذاتها اصطلاح علمي وردنا مع اصطلاحات علم الاجتماع . ونحن نملك عنه بعض التصورات ، الا اننا ندرك ان ايضاح هذه التصورات لا يفيد لدى كتلنا ، وانما يفيد التهويل به ومنه ، لاننا بذلك نستخدمه كقوة وسلطة .

اي أن استخدام بعض مثقفينا وعلمائنا لتعبير التخلف وتوابعه ، لا يخرج عن اسلوب استخدام ثوارنا لمصطلحاتهم الخاصة كذلك ، من شعارات وكلمات وتعابير ، فيها مزيج السحر والعلم معا ، والاول هو الاغلب والافعل .

***

وهذا يجرنا الى البحث عن نموذج المثقف المتفلسف الجديد ، الذي ابرزته منابر المرحلة الثقافية التالية على الهزيمة ، وحاول ان ينازع الثوري والسياسي معاقله الاساسية ، ويأخذ منه زمام المبادرة في لعبة قيادة الجماهير ، بعقولها واعمالها .

ان نموذج هذا المثقف اخترع طقسيته الخاصة عن طريق استخدام مفاهيم التخلف ومشاكلها ، ليقابل بها طقسية الثوري والسياسي ، في قاموس الثورية والايديولوجية . وراح يمارس (نشاطه) الفكري في مناخ من الضياع وفقدان الركائز ، وانهيار المعنويات . وكان بعض هؤلاء مدفوعا ولا ريب ، برغبة لاشعورية ، نحو تهديم اسس العمل الثوري السابق ، بحجة انتمائه نهائيا الى جذر المجتمع المتخلف . وزعم البعض الاخر ان الهزيمة ما هي الا شهادة ضد ادعياء التقدمية الذين (ورطوا) الامة في حرب ، كانت بمثابة فخ للايقاع بالامة كلها،التقدمي وغير التقدمي منها .

قد تكون هذه الملاحظات صحيحة في مجال اختلاف المضامين والاهداف التي يستخدم في سياقها تعبير التخلف وتوابعه . ولكن هذه الملاحظات لا تمنع من اعتبار التخلف في حد ذاته يؤلف واقعا اجتماعيا اساسيا ، وان دراسة ظواهره وعلاقاته ، للكشف عن اصل بنياته ، هو من اهم دواعي البحث العلمي الجدي ، الذي لم يلتفت اليه حتى الان من يأخذ على عاتقه مهمات التوعية العلمية الموجهة الى الجماهير ، والمرتبط بالطلائع الثورية في بلادنا .

ولذلك فقد يتنطع لمثل هذه الدراسة ، او ظاهرها على الاقل ، من يجد المناسبة سانحة لادانة القوى التقدمية اجمالا تحت شعار الغيرة على الوطن ، ومحبة العلم واحترام الحقيقة .

ولكن من ناحية اخرى ، فان اقبال بعض المثقفين الجديين ، على معالجة النواحي الاجتماعية الناقصة من البيانات والمواثيق العقائدية اجمالا ، يعتبر في حد ذاته تحريكا اساسيا لفئة من طلائع التقدم،غير السياسي ، التي لم تشارك حتى الان مشاركة فعالة في قضايا الحياة العامة للامة . الا ان ذلك لا يمنع من بناء حوار علمي جديد بين المثقفين الملتزمين والمثقفين غير الملتزمين ، شرط الا يشعر الاولون انهم مصنفون جملة وتفصيلا مع الجانب المدان المتهم ، والا يشعر الجانب الثاني انه يتطفل على ميدان ، كان حتى مدة قليلة ملكا لسواه .

فمن عيوب التحرك الثوري القديم في بلادنا ، انه كان تحركا وحيدا منفردا ، لا يفسح مجالا لكي تتقدم الفعاليات الاجتماعية الاخرى الى جانبه ، في خط واحد متداخل . فالزعامة السياسية ، لم تكن

تسمح ببروز زعامة فكرية او علمية او تكنولوجية ، تنوع من فعاليات الخلق والممارسة لدى الاجيال المتتابعة ، بحسب اهتمامات مختلفة ، يحتاجها المجتمع لتغطية ميادين التحديث شبه الخالية من اربابها ، من المختصين والبحاثين والرواد العلميين .

ولا شك ان دراسة المجتمع المتخلف ، ليست دراسة جديدة في بلادنا فحسب ، بل هي كذلك جديدة ونادرة حتى في اوساط العلوم الاجتماعية المتقدمة في الغرب . فلقد عني كبار الاجتماعيين الغربيين، منذ تأسيس علم خاص بالاجتماع في فرنسا ، على يد كل من (اوغست كومت) و (اميل دركهايم) ، بدراسة المجتمعات الغربية . ثم انتقلوا الى دراسة المجتمعات الثقيضة ،فانطلق تيار جديد للبحث عن طبيعة المجتمعات الابتدائية ، كما هي لدى القبائل الافريقية وما يشبهها في مناطق القطب الشمالي ، واميركا الجنوبية ، واوستراليا ونيوزيلانده وبعض اقطار اسيا الشرقية . ولم تزل دراسة البنى الابتدائية من اهم حوافز الفهم الحضاري للمجتمعات المتقدمة ذاتها .

ولكن منذ ظهور ما يسمى بالعالم الثالث ، ومشكلة الشعوب المستقلة حديثا بعد الحرب ، اهتم بعض الكتاب الذين ينزعون نزعة تحررية بصفة عامة ، بالبحث عن بنية خاصة لما يدعى بالمجتمع المتخلف. وحاول هؤلاء ان يميزوا فعلا بين البنية الابتدائية الخالصة وبين البنية التخلفية . غير ان هذا التمييز لم يجد له تعميقا وتوضيحا كافيين لدى الاوساط العلمية الخالصة وبقي الاتجاه العام يرفض التمييز بين الابتدائي والتخلفي ، ويعتبر الثاني مندرجا في النوع والطبيعة تحت شمول الاول . وبقيت الدراسات الاساسية التي اجراها العالم (ليفي برول) حول العقلية الابتدائية ، خاصة في كتابه الذي يحمل هذا الاسم ، مصدرا رئيسيا لفهم الطبيعة الابتدائية ، من وجهة مقارنتها بالطبيعة الغربية المتقدمة ، سواء من الناحية الفكرية او السلوكية .

ولكن الاهتمام بقضايا العالم الثالث من الناحية السياسية ، قد حفز عددا كبيرا من الدارسين ، الى الانتباه الى الدور الجديد الذي تلعبه ظاهرة استقطاب القوى الشابة الصاعدة الى مسرح الصراع الدولي، وما ينشأ عن هذا الاستقطاب من نتائج شاملة ، على صعيد السياسة والحضارة العالمية . وفي حين اتجهت اكثر هذه الدراسات الى زاوية التحليل السياسي ، وتطبيق الايديولوجيات الثورية كمناهج موضوعية، على مظاهر التفجير الجماهيري في اكثر مجتمعات هذا العالم الثالث، فان الاهتمام بالبنيات الاجتماعية الخاصة واصولها الفكرية ، ومصادر عقائدها وانماط السلوك والممارسة الفردية والجماعية ، هذا الاهتمام بقي في المستوى الثاني من الفحص والتحليل العلميين .

بقي ان على الباحثين من طلائع مثقفي هذه المجتمعات ان تنطلق من ذاتها الى دراسة البنى الاصلية لشعوبها ، واثر هذه البنى على مسيرة التحديث الشاملة التي تنخرط فيها الاجيال الصاعدة من هذه المجتمعات الجديدة .

***

واذا انتقلنا الان الى ما يخص المجتمع العربي ، فاننا نلاحظ اولا فقر الدراسات الغربية عامة من المراجع العلمية التي يمكن ان تعتبر تغطية واضحة لموضوعات هذا المجتمع بنفس النسبة مثلا للمراجع الكثيرة التي كتبت عن شعوب متخلفة اخرى . ولولا بعض دراسات المستشرق الفيلسوف « جاك بيرك » عن مجتمعات المغرب العربي تم عن المجتمع العربي المصري حتى الثورة الناصرية ، لامكن القول بأن الغرب الاوروبي خاصة ، لا يكاد يجد مرجعا واحدا يشمل دراسة علمية عن واقع العرب ، من وجهة نظر داخلية متفهمة ، كما حاول ان يفعل جاك بيرك ، خاصة في كتابه الاخير عن تاريخ المجتمع المصري الى حين انبثاق ثورة ١٩٥٢ .

والحقيقة ان المهمة ما زالت ملقاة على عاتق العالم العربي المختص اولا . ان الثوري حاول ان يفجر معركة الحياة . ولكن العالم عليه ان يحدد ينابيع الحياة ومواقع الموت في مجتمعنا ، وكيف تتلاقى جذور الموت بتفجرات الحياة . فالثوري يدعو الى التغيير ويخلق الشوق لدى الجماهير الى التغيير . والعالم يعطي الجواب على سؤالين : كيف يقع هذا التغيير ، وما هي وسائل التغيير ؟ والطلاق الذي كان يقوم بين الثوري والعالم في مجتمعنا ، سببه هو ان الثوري مرة كان يتقمص شخصية العالم فيحذف للعلم مهمة مستقلة عن حاجات التحريض الجماهيري ، وسببه مرة اخرى احجام العالم عن التصدي لقضايا يعتبرها اقرب الى السياسي منها الى الفكر الموضوعي .

ولعل بالامكان القول ان اهم احراج واجه الثورة العربية في الماضي هو الانفصام الداخلي في بنيتها الانسانية ، ما بين نزعة التغيير ، والمعرفة بعلم التغيير .

ولقد حان الوقت اخيرا لتبلر فعالية العلم ، كظاهرة موضوعية مستقلة ، في كيان المجتمع . واذا كانت الحاجة الى علوم التكنولوجيا تبدو هي العامل الاقوى في دفع العقلية العربية الى مرحلة التحديات الموضوعية الواضحة ، فان الحاجة الى ظاهرة العلوم الانسانية كاساس ذاتي كياني ، تتأكد من خلال الشعور السائد لدى المثقفين العرب، بان كل تغيير في ارضية المجتمع العربي ينبغي ان يصحبه تغيير مماثل في الذهنية الانسانية التي يناط بها تحقيق التطور في اشكال الحياة المادية اولا ..

ان انبثاق ظاهرة العلم العربي الاجتماعي ، يكاد يكون اليوم احد العناوين الضمنية لمرحلة الثورية الجديدة ، بمعناها الحضاري ، هذه المرحلة التي طالما اعاقتها عقد الطفولة والادعاء والتخريب في الثورية السياسية السابقة .

***

نعود الى القول ان العلوم الاجتماعية الغربية لم تفرد بعد اهتماما خاصا واسعا بنمط المجتمع المتخلف ، من وجهة اشتمال هذا النمط على ظواهر لا تندرج تحت النمط الابتدائي ، ولا تحت النمط الغربي الحديث . ولكنها ظواهر ذات بنيات اجتماعية مستقلة تحتاج بالتالي الى منهج جديد للدرس والتحليل والكشف عن قوانين العلاقات والتطور ، بين مختلف نماذج التفكير والسلوك والممارسة الجماعية .

ولكي تتضح لنا ضرورة قيام علم اجتماعي جديد لاستقراء نمط المجتمع العربي المتخلف ، علينا ان نقارن بين هذا النمط وبين نمط المجتمع الابتدائي ، الذي اعتبر غالبا الصيغة الاشمل التي يلحق بها المجتمع المتخلف .

فالمجتمع العربي المتخلف ، هو اولا مجتمع حاضر له تاريخ مغرق في القدم ، ينحدر عن مجتمعات كانت لها حضارات راقية معترف بها ، في حين ان المجتمعات الابتدائية ذات الشكل القبيلي ، كما في افريقيا ، هي مجتمعات بدون تاريخ ، بمعنى ان ماضيها ما زال ماثلا كما هو في حاضرها . فالصفة الابتدائية ملازمة لوجود هذه المجتمعات منذ القدم . واذا كانت لا تخلو احيانا من بعض اعراض التطور ، فهو تطور ليس نحو الاعلى او نحو الاسفل ، ولكنه تغير طفيف في بعض العادات ومظاهر السلوك ، التي لا تفارق مستوى الابتدائية ، كان تنتقل احدى القبائل من عادة تقديم الضحايا الى البركان المجاور لارضها ، الى عادة تقديمها مثلا الى احد وحوش الغاب كالنمر او الاسد ، بعد ان انطفأ البركان وظهر تهديد اخر لوجود القبيلة من بعض حيوانات الغاب المحيطة بها . فان هذا التطور ، ليس له اتجاه حضاري ، ولذلك ليس هو الا مجرد تغيير طفيف لا يعطي للطقس السحري اي مضمون جديد ، يدل على تبدل واضح في موقف العقلية الابتدائية من فهم العالم ، ومن طرق الممارسة الاجتماعية في اشيائه وحوادثه .

ومن ناحية ثانية فان المجتمع العربي لم ينقطع انقطاعا تاما عن المشاركة في تيار الحضارة الانسانية من حوله ، حتى ابان المرحلة الطويلة من انحطاطه . ولقد بقيت بعض عواصمه الكبرى الاساسية ، تشارك ولو بصورة سلبية غالبا ، في احداث التاريخ المرتبطة خاصة بصراع الدولة العثمانية مع القارة الاوروبية . واذا كانت هذه المشاركة قد اقتصرت على تجنيد الجنود العرب بالملايين للمحاربة تحت لواء الخلافة العثمانية الاسلامية ، او المساهمة احيانا من قبل بعض وجهاء العواصم العربية في الادارة العثمانية المركزية او المحلية ، فان اضواء الثقافة العربية الخالصة لم تنطفىء ، وان خفت نورها الى درجة الظلام احيانا او ما يشبهه .

ـ التتمة على الصفحة ٦٤ ـ

تتمة مشكلة التخلف والتقدم

***

فان الاطر الاجتماعية المتبقية لابراز فعالية الثقافة ، وهي اطر الدين وطرق التصوف ومذاهبه وعلوم اللغة العربية ، هذه الاطر بقيت لها آثارها العقلية على جماهير المدن الكبرى . كما استطاعت من ناحية ثانية ان تغذي طاقة بسيطة للاستمرار ، وتمنع الانقطاع المطلق في جريان روح الثقافة العربية في الجسد الضعيف المتداعي .

لقد كان ثمة عوامل خارجية كبرى تبحث دائما قوى المجتمع العربي عن التطور والخلق والمشاركة الفعالة في تيار التقدم الانساني. فالغابات الاستوائية التي الفت اهم عامل في قتل التفتح الانساني لدى القبائل الابتدائية ، يناظرها في العالم العربي وجود احتلال اجنبي دائم لاراضيه ، واخضاع رهيب لمجتمعاته من قبل قوى بربرية طيلة الف ونيف من الاعوام في حين كانت المئات الاخيرة من التاريخ الحديث تقرر مستقبل الحضارة في الغرب وجعلته مرتبطا بالدرجة الاولى بالعلم المادي ، والسيطرة على منابع الثروات الطبيعية وأسواق تصريف البضائع المصنوعة ، اي المجال الذي تطبق فيه اكتشافات العلم لصالح الانسان المستغل .

ثم ان المجتمع العربي لا يمكن اعتباره مجتمعا ابتدائيا ، ليس لاعتبارات نظرية فحسب ، ولكن لاعتبار واقعي راهن ، هو ان هذا المجتمع لا يقع اليوم ، وفي بحران الاحداث الدولية الكبرى التي توجه مصائر العالم ، لا يقع على هامش من هذه الاحداث ، ولا يؤلف مجرد كمية بشرية معزولة ، تتخذ عينة لدراسات ثقافية خالصة تهم المختصين في علوم الانتربولوجيا والاتنوغرافيا ومشتقاتها من فروع عصر الاجتماع، كما هو حال قبائل الاسكيمو او قبائل افريقيا او زيلانده وغيرها .

فالمجتمع العربي هو اكثر تعقيدا من ان يكون مجرد مجتمع ابتدائي، ولكنه اقل تحديثا واعدادا تكنولوجيا وفكريا ، لان يكون قوة اساسية فاعلة في الحضارة العالمية الراهنة .

ومن ناحية اخرى فان المجتمع العربي لم ينقطع انقطاعا تاما طيلة عصور جموده وانحطاطه عن المشاركة بنسب مختلفة من التاثير والتاثر، بما يجري حوله من حركات التقدم الانساني . ولعل اللحظة الحاسمة التي فصلت المجتمع العربي عن تيار الحضارة الغربية الناشئة ، كانت مقترنة بالفترة التي استطاع الغرب ان يضع فيها حدا في الثقافة الانسانية بين سيطرة الذاتية الدينية ثم الفلسفية ، وبين انبثاق القدرة في السيطرة على العالم الموضوعي الخارجي ، في اكتشاف الوجود المادي ، وفي ممارسة الحوار ما بين العقل وبين اداة التغيير المادية . ذلك كان الايذان بمولد حضارة التكنولوجيا في الغرب الاوروبي ، ثم الغرب الاميركي ، حيث وصلت هذه الحضارة في عصر الالكترون الى ذروتها الخطيرة .

لقد كانت معجزة الغرب الكبرى التي جعلته ينفصل نهائيا عن نموذج الحضارة الانسانية التقليدية ، التي بقيت اسيرة لها شعوب الشرق ، وخاصة الشعب العربي ، كانت هذه المعجزة في الخلاص من ثقافة الذاتية الدينية الغيبية ، والانطلاق الى فهم المادة والتعامل مع حقائقها .

ان الثقافة الذاتية هي محض تصورات لا مقياس لها في الواقع المحسوس . انها الثقافة في غياب العالم . ونتيجة لذلك فان افضل تعريف للمجتمع المتخلف ، هو انه المجتمع ذو الثقافة الذاتية ، والذي ما زال يعيش في مرحلة ما قبل الثورة العلمية . ان هو المجتمع الذي يفتقر الى اية علاقة ايجابية بالمعنى العلمي التكنولوجي ، بالعالم من حوله . على ان نفهم من العالم ليس الطبيعة وحدها ، ولكنها الطبيعة الثانية التي خلقتها الثقافة الموضوعية . ونعني بالطبيعة الثانية ، مجموعة الآلات والادوات والمصنوعات والنظم الاقتصادية والانماط الفكرية والسياسية التي تنظم المجتمع التكنولوجي .

ثم ان المجتمع المتخلف ليس نمطا جامدا منعزلا عن نقيضه ، المجتمع التكنولوجي . بل هناك علاقة صراع دائم بين النمطين . ولعل هذا الصراع هو اهم محرك مادي حضاري لاحداث العالم في الوقت الحاضر. فالانظمة الرأسمالية والاشتراكية في اوروبا الشرقية والغربية واميركا، اصبحت اليوم وجهين أو نموذجين للمجتمع المتقدم بوسائل التكنولوجيا. واما شعوب آسيا وافريقيا واميركا اللاتينية ، فهي القطب المعارض من حيث طبيعتها المتخلفة . انها تؤلف موضوع الصراع بين قطبي العالم المتقدم ، الاتحاد السوفياتي واميركا .

ولكن العالم المتخلف قد جاوز اجمالا مرحلة الخضوع لمخطط الصراع المفروض عليه من خارجه . واصبحت هناك طلائع واضحة من شعوب هذا العالم ، تحاول أن تجني بعض ثمار الصراع لصالح تقدمها التكنولوجي وتحررها السياسي والعقلي .

ومن اهم طلائع العالم المتخلف ، الشعب العربي نفسه ، وذلك بالنسبة لعدة عوامل . منها استقطابه لواحد من اخطر محاور الصراع السياسي والاقتصادي والاستراتيجي في عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية خاصة . ومنها حصيلة من المواقف الايجابية المتقدمة ، التي استطاع الشعب العربي ان يرد بها على تحديات الصراع الدولي حوله وعلى ارضه . ومنها قدرة الشعب العربي ، المتزايدة مع اطراد التحديات ، على تأكيد طريق جديد في الرد على هذه التحديات ، وتأسيس نظرة تقدمية تحدد صورة عن التغيير ما زالت مترددة بين المنعكسات السياسية للنظريات الثورية المتزاحمة على قيادة الفكر العربي ، في هذه المرحلة العصيبة . اي ان وقوع الموقف العربي في مركز التحديات السياسية المصيرية ، يشكل اكبر عامل تحريض كياني على التفتح .

ولكن لا بد من ان يستغل هذا التفتح في ميدان الصراع على السلطات السياسية من قبل النخب التقدمية في المجتمع العربي فحسب ، فان الرد على التحدي يجب أن يفجر اصول الطاقة الحضارية الشاملة لدى الامة ، ويجعل تحركها السياسي صورة يومية عن تطوراتها العقلية والاخلاقية والمادية . في حين عملت القوى الاجنبية مع بعض الاتجاهات السياسية الغيبية في بلادنا ، على عزل الفعالية الثورية دائما عن مضمون التفجير الحضاري الشامل . فكان ان سيطرت قوى التخلف ذاتها من وراء المع الواجهات الثورية ، وملأت مضمون الاشكال السياسية المتصارعة على السلطة . فكان العمل الثوري مصابا دائما بتناقض ذاتي كياني . فهو يحمل اكثر الشعارات عصرية وتقدما ، وفي الوقت ذاته تسيره قوى المجتمع المتخلف الذي هو موضوع الثورة . ومن هنا استهلكت الثورية اكثر قواها براءة واصالة في حرب الشعارات السياسية اليومية . وعزلت بقية المجتمع عن الانجذاب الى اساليب التغيير الاعمق فكرا وتكوينا عصريا .

ومن ناحية اخرى فان القائلين بالتطور التكنولوجي المعزول عن سياق الواقع الصراعي بين عوامل التخلف والتقدم ، يجعلون من انفسهم دعاة تعليميين ، يدعون الى اهداف ، ولا يربطونها بواقع الصيرورة والتحول في بنية المجتمع . بينما يبدو واضحا ان تفجر امكانيات التحديث العامة ، غير المقتصرة على ظاهرة السياسة او التكنولوجيا ، ان هو الا جزء اساسي من ظاهرة الاصطدام الحضاري اليومي بين المجتمع المتخلف والمجتمع المتقدم . ان هذه الظاهرة وما تولده من عوامل التحدي والجدل الحضاري ، الواقعي والفكري ، هي التي تؤلف الارض التاريخية والمادية لنشوء البنى التحديثية المتكاملة ، في صيغة متوازنة من التقدم في الشكل والمحتوى ، وبين مختلف الفعاليات الاجتماعية في الوقت ذاته .

فالذي يمد عوامل التحديث بالواقعية والنمو العصري الواضح ، هو انتماؤها الى واقعية اشمل منها ، تحدد بالثورية الحضارية .

ان القول بحذف الغيبيات وحدها ، او الغاء الثوريات ، او تحقيق التقدم بالتكنولوجيا ، او تطوير الجامعات ، وما يشبهها من عوامل اخرى ، انما يقبل بالموقف التعليمي التجزيئي ، ويرفض اعادة هذه المظاهر المختلفة الى صيغتها الواقعية المتكاملة . ويعجز بالتالي عن تحديد عوامل الحذف والتكوين من خلال صراع البنى الاجتماعية ، تخلفيا وتقدميا ، وصولا الى تجاهل الشرط الاساسي ، الا وهو واقعية الاصطدام ، التي تمثلها شروط الثورية الاصيلة . هذه الثورية التي شوهتها دائما ثورية السياسة اليومية المتصارعة على السلطات بعقليات الاقطاع السياسي نفسه ، المؤلف لحقيقة الوضع التخلفي التاريخي كله للمجتمع العربي .

مطاع صفدي